للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٤ —

« ... أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً فى أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص بائنين قيا بين قلبيهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاق بعد فراق طويل ، كأن في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟

« ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاها أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ؟

« وقلت لى بعينيك : أنا ... وقلت لك بعينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

« وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض بينها ؟

« وجذبتنى سحتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها فاذا هو إعجاب ؛ فاذا هو إكبار ؛ فاذا هو حب ؟

« وعودت عينى من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كأن فيه زيادة لم تزد ؟

« وكان الجو جو قلبينا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية ... ؟ »

(هى)

« ... جعلنا أصغ مكاناً للحب كأنما مر به سر الخلود فاذا الوقت فيه لا يشبه نقصاناً من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت يا حبيبتى كل دقيقة وثانيتها فى مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بإزاء سر وضعنى فى ساعة من غير الدنيا وحصرنى فيك وحدك ...

« وهاجنى من يقظتى واقتحمت على من حذري ...

« وخليتنى وعينيك ، وخليتنى وما كتب على ...

« واتسمت روحى لتشملك ، فما كنت تكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين فى غرفتك ولكن فى داخل نفسى ..

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتلاقى أمامنا ويلثم بعضها بعضاً من حيث لا تراها إلا عيناى وعيناك

« وترامت النفسان فملأتا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر

« وقلت لى بجملتك : أنا .. وقلت لك بجملتى : وأنا .. »

(هو)

هى وهو ؟

إنى لأعرفه عرفانى بنفسى ، فما بى شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطنى بنفسه زمنا فانى لأسمع نجواه وأقرأ سره ، وأعرف ذات صوره ، فما أصف من حبه إلا مستيقناً كأنما أنقل عن لوح مسطور فى فؤادى ، أو أثبت من حادثة فى تاريخ أيامى ماثلة فى نفسى بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عنى منها شيء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء فى بيان سافر كاشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هى ...

أما هى فما فى يدى شيء من خبرها إلا ما حدثنى به الرافعى أو حدثتنى رسائله ، فما أتحدث عن حبها إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققاً يضم كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ، ليخرج منهما معنى ليس فى يده من حقيقته شيء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأي وملابسات الحادثة

وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم أو يزيد ، وحسبي هذا مقدمات إلى النتيجة ، وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره ...

***

لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلباً إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرها الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدث عن أحلامه ، فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فاذا هو تحت الرغام ، وإذا هي فى المستشفى تتمرض من داء هيهات أن تجد له الدواء !

***

لم تكن (هي) تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذى تعجب به ويفتنها بيانه ، فأحبته (عقلاً جميلا) كما تسميه في بعض رسائلها ...

***

وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطها إليه وفاتنها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيد هي به ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان هكذا تقول في بعض رسائلها ...

* * *

وهي فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت — غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍّ همين ، وإن حواليها لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكن ... ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه ، أكثر مما تريد الصديق الذي لا تسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافعي وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها فاخضلّت عيناه وأطرق فوضعت يدها على يده وهي تقول :

« سأدعوك أبي وأمي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين ؛ وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق ؛ وسأطلمك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيّل فيّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري ... ! »

وأحبته (صديقاً) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم ...

* * *

وهي الفتاة التي لم تعرف في حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من دنياها إلا الجد الصارم ؛ وما كان لها من عمل غير الاستغراق في الفكر ، أو الاستغراق في الفن ؛ وإنها لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعي رجل — كان — لايحمل من هم ، فما يدع الفكاهة ولا يترك المزاح والدعابة وإن الدنيا تصطرع حواليه ، وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ؛ وإنه ليهزل في أجدّ الجد وأحرج الساعات هزله في أصفى حالاته وأسمد أيامه ؛ فما يجالسه ذو هم إلا سُرِّي عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدثت إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذي تسيطر عليها روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه ..

* * *

واستمعت إلى صوته يتحدث ، فكان له في نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنته الفكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ؛ ولمحته يبتسم ، فجذبتها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفا على شفاه الرجال ؛ ونظر إليها ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا في صمت ؛ وتركها وهي في نفسه ، ومضى وهو في مجلسها ؛ وأحست في نفسها إحساساً ليس لها به عهد ؛ فتناولت قلمها لتكتب إليه :

« ... سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد ؛ وسأتسمع إلى جميع الأصوات على أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرّح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك ... وسأبتسم في المرآة ابتسامتك

« في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك ...

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عاديّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل ...

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً ، لأنك أوحيت إلي ما عجز دونه الآخرون . أتعلم ذلك ، أنت الذي لاتعلم؟ أتعلم ذلك ، أنت الذي لا أريد أن تعلم ... ! »

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذي فجر لها ينبوع الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذي وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافاً إلى الرفيق الأنيس الذي كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم ... ثم حباً يستأثر بنفسها ويسيطر عليها في غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأصلها الهوى وأصله ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون

أرفعَ محلاً لو أنها منعته بعض ما تمنحه ، وخيل إليه أنه يستطيع وقالت له : « أنا لا أشفق على آلامك ؛ وهل ترانى أكره لك النبوغ والعبقرية ؟ » وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته ؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت ؛ وما عرفت إلا من بعـد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ؛ وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجانفيه لتطلب إليه أن يكون فى الحب أجرأ مما كان …

وعرف وعرفت ، ولـكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ؛ وظلّ وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين . . . حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء … !

* * *

إن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه ليدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب ، وسيتناولونها بالريبة والشك ؛ وسيقول قائل ، وسيدعى مدع ، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلّل ؛ ولا علىّ من كل أولئك ما دمت أقص القصة التى أعرفها وأستيقنها ، والتى كان لها فى حياة الرافعى الأدبية تأثير يُردّ إليه أكثر أدبه من بعد ، وحسبه أنه كان الوحى الذى استمد منه الرافعى فلسفة الحب والجمال فى كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، وحسبي أننى قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد

(شبرا) محمد سعيد العريان

إلى الصديق الذى كتب إلى يسألنى أن أنشر له وللقراء رسالة مما كان بين الرافعى وصاحبته : أن يقرأ رسالتها فى أوراق الورد ص ١٤٤ — ١٥٠ فلعله يرى فيها لوناً من رسائلها إليه ، وحسبه الآن هذه الرسالة ، وإنها لَبسبب من موضوع هذا المقال

العـــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٤ —

أهلّ أبو الفرج الببغاء فى أعقاب عصر ، وفى طلائع عصر آخر ؛ أما العصر الأول فكانت الكتابة فيه جزلة مرسلة ، تسير ذللاً لا أمت فيها ولا عوج ، وترسل طبيعية لا تعمل فيها ولا تكلف ، لا يلتفت الكاتب إلى غير المعنى الواضح الناصع فى اللفظ المحكم والنسج المبرم ؛ فقد كانت الأمة حينئذ — أواخر دولة بنى أميـة وأوائل دولة بنى العباس — لا يزال بها رسيس من بداوة ، وكتابها لا يفتأون ناهجين فى أساليبهم نهج العروبة الخالصة ، لم تشبها كدرة العجمة . ومن كان منهم أعجمى التفكير فإنه عربى قح فى التعبير ، ومن أريدت له من أبناء العجم — وما أكثرهم — المنزلة الرفيعة والحظوة المكينة لدى رجالات عصره وسراة دولته ، فأداته الأولى حذق العربية والتبحر فيها ، وممارسة الأدب والبراعة فيـه ، والاحتفال له ، واتخاذ صناعة الكتابة وسيلة زلفاه ، وسبب علياه ، والمشرع الذى يشرعه لا يحلّئه عنه أحد ، ولا يذوده دون وروده ذائد ؛ هو شدو اللغة بين بدوها ، ينهل من قطرها ونبعها . ولقد كان أرباب السلطان يهيبون بمن يتخيلون فيهم مخايل الفطنة والموهبة والذكاء والنبوغ أو يتوسمون منهم فوقاً وحذقاً وبراعة ونبلاً ؛ يهيبون بهم أن يهبطوا أول أمرهم فى البادية تشرق فيها قرائحهم عن أفكار صافية ، وتجرى ألسنتهم على الألفاظ السليمة الخالصـة ، ثم يعوجوا إلى رهط الحضر يعبُرون من أخيلته السامية ، ويعلُون من معارفه الزاخرة ، ولم تكن الفارسية قد زحمت العربية إلا بقـدر ، والعجمة لا تزال محدودة البيئة والوطن ؛ لأن كلتا الدولتين الغاربة والشارقة ، أو الأموية والعباسية إبان ذلك تبتغى مأرباً واحداً ؛ فالأولى تريد لعرشها نهوضاً ولملكها رسوخاً ، على ظبات الرماح وعلى أسلات اليراع ؛ والأخرى تطلب لنجمها الصاعد سطوعاً وتبنى ملكاً ثابت الأساس ؛ فرجالها فى حاجة إلى من يملك أسماع جمهور العامة بفصاحتـه الصّافية ، ويخلب ألباب قارئيه من الخاصة ببلاغته الصافية ؛